

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْعِفَةُ وَالْحَيَاةُ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، جَعَلَ الْعِفَةَ وَالْحَيَاةَ صِفَةَ الْأَتْقِيَاءِ الْمُرْسَلِينَ، وَسِمَةَ الْأَصْفَيَاءِ الْمُكَرَّمِينَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَعَدَ الْمُتَعَفِّفَ أَنْ يَكُونَ فِي كَنْفِ اللَّهِ وَحْمَائِتِهِ، وَحَفْظِهِ وَرِعَايَتِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّداً عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، عَدَ الْحَيَاةَ شُعْبَةً مِنْ شُعْبِ الْإِيمَانِ، وَعَلَى اللَّهِ وَالْأَصْحَابِ، وَالْتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِ الْحِسَابِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ تَنَقُّلَوْنَا أَلَّا يَجْعَلَ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ سَيِّئَاتُكُمْ وَيَعِفُّ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾^(١)، وَاعْلَمُوا - رَحْمَكُمُ اللَّهُ - أَنَّ الْإِنْسَانَ بِطِبَّيْعَةِ فِطْرَتِهِ يَمِيلُ إِلَى الْحَسَنِ، وَيَنْأَى بِنَفْسِهِ عَنِ الْقَبِيحِ، وَيَتَمَسَّكُ بِالْطَّبَاعِ السَّلِيمَةِ، وَيَبْتَعِدُ عَنِ الصَّفَاتِ الَّتِي تُكْسِبُهُ الْمَذَمَّةَ وَالنَّقِيْصَةَ. وَدِينُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الإِسْلَامُ جَاءَ لِيُحَقِّقَ أَسْمَى مَدَارِجِ الْكَمالِ، لِيَحْيَا النَّاسُ حَيَاةَ الْاَطْمَئْنَانِ، وَيَعِيشُوا فِي جَوَّ مِنَ السَّلَامَةِ وَالْأَمَانِ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْكِمَنَّ لَهُ حَيَّةً طَيْبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٢). إِنَّ الْأَخْلَاقَ ضِمَانَةُ لِعِيشٍ كَرِيمٍ وَحَيَاةٍ آمِنَةٍ، بَلْ هِيَ سِيَاجٌ يَحْفَظُ كِيَانَ الْأُمَّةِ مِنَ التَّشَتُّتِ وَالضَّيَاْعِ، وَدَرْعٌ يَصُونُ الْأَبْنَاءَ مِنَ الْأَنْحِلَالِ وَالْفَسَادِ، فَمَا أَجْمَلَ أَنْ نَتَمَسَّكَ بِهِدَايَةِ الدِّينِ، وَمَا أَرْوَعَ أَنْ نَتَحَلَّ بِأَخْلَاقِ سَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وَنُرَدَّدَ عَلَى سَمْعِ الْعَالَمِينَ: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَنِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةً إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

(١) سورة الأنفال / ٢٩.

(٢) سورة النحل / ٩٧ .

(٣) سورة الأعراف / ١٦١ .

أيّها المؤمنونَ:

إِنَّ مِنْ بَيْنِ الْخَلَلِ الَّتِي ارْتَضَاهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لِعِبَادِهِ الْمُخْلِصِينَ خَلَةَ الْحَيَاءِ، إِنَّهُ الْخُلُقُ الَّذِي تَمِيزَ بِهِ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ ﷺ وَنَالَ مِنْهُ النَّصِيبُ الْأَكْبَرُ؛ فَقَدْ كَانَ أَرْقَ النَّاسِ طَبْعًا، وَأَنْبَلَهُمْ سِيرَةً وَأَصْفَاهُمْ سَرِيرَةً، وَأَعْمَقَهُمْ شُعُورًا بِالْوَاجِبِ، وَنَفُورًا مِمَّا يُسْتَكْرِهُ أَوْ يُعَابُ؛ وَلَا عَجَبٌ فِي ذَلِكَ إِذَا الْحَيَاءُ لُبُّ الْإِيمَانِ وَحَقِيقَتُهُ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : ((إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ))، وَلَقَدْ رَأَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَجُلًا يَدْعُو أَبْنَهُ إِلَى تَرْكِ الْحَيَاءِ، فَنَهَاهُ عَنْ ذَلِكَ وَقَالَ لَهُ: ((دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ))، وَلَمَّا دَخَلَ الْأَشْجَاعَ الْعَصْرِيَّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ امْتَدَحَهُ وَأَتَّهَى عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ((إِنَّ فِي أَكْلَاقِ الْخَلَقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ الْأَشْجَاعُ: مَا هُمَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: الْحَلْمُ وَالْحَيَاءُ))، فَاسْتَبَشَ الْأَشْجَاعُ بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ الْكَرِيمَةِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَنِي عَلَى خُلُقَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى.

عِبَادَ اللَّهِ:

إِنَّ لِلْحَيَاءِ أَثْرًا قَوِيًّا فِي سُلُوكِ الْمُسْلِمِ، فَصَاحِبُ هَذَا الْخُلُقِ يُرَاقِبُ اللَّهَ تَعَالَى سِرًا وَعَلَنَا لِكِي لا يَرَاهُ حَيْثُ نَهَاهُ، وَلَا يَفْقَدُهُ حَيْثُ أَمْرَاهُ، فَهُوَ يَحْمِي دِينَهُ مِنْ أَيِّ خَلَلٍ، وَيَصُونُ كَرَامَتَهُ مِنْ أَيِّ خَدْشٍ، وَيَتَحَاشَى بِشَرَفِهِ عَنْ كُلِّ ذَنْبٍ أَوْ مَكْرُوهٍ، يَتَخَيَّرُ لِنَفْسِهِ أَحْسَنَ الْخِصَالِ لِيَبْلُغَ بِذَلِكَ غَايَةَ الْكَمَالِ، يَقُولُ ﷺ : ((الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ)), لَكِنْ مَنْ نُزِّعَ مِنْهُ الْحَيَاءُ فَإِنَّهُ لَا يُبَالِي بِمَا يَصْدِرُ مِنْهُ وَلَا يُحَاسِبُ نَفْسَهُ عَلَى أَعْمَالِهِ أَكَانَ مُحْسِنًا فِيهَا أَمْ مُسِيئًا، يَقُولُ الرَّسُولُ ﷺ : ((إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنُعْ مَا شِئْتَ))، إِنَّ مَنْ نُزِّعَ مِنْهُ الْحَيَاءُ، فَاقْتَرَفَ الرَّذَائِلَ عَلَنَا، غَيْرَ آبِهِ لِشُعُورِ الْآخَرِينَ، وَلَا مُكْتَرِثٌ لِفِعْلِهِ الْمَشِينِ، رُفِعَ عَنْهُ الْإِيمَانُ لِأَنَّهُ لَمْ يَمْنَعْهُ تُقْيَ وَلَا خَجْلٌ، وَلَمْ يَحْلُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الرَّذِيلَةِ شُعُورٌ بِخَوْفٍ أَوْ وَجْلٍ، قَالَ ﷺ : ((الْحَيَاءُ

وَالإِيمَانُ قُرْنَاءُ جَمِيعًا، إِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْأَخْرُ)، إِنَّ عَدَمَ التَّخْلُقِ بِخُلُقِ الْحَيَاءِ يُؤَدِّي إِلَى كَثِيرٍ مِّنَ الْمَفَاسِدِ وَفَعْلِ الْحَرَامِ وَالْمُجَاهِرَةِ بِهِ، وَهُوَ سُلُوكٌ ذَمِيمٌ حَذَرَ مِنْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذْ قَالَ: ((كُلُّ أُمَّتِي مُعَافٍ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ))، فَلَا يَظُنُّ الْمُجَاهِرُ بِالْمَعَاصِي أَنَّهُ قَوِيٌّ شُجَاعٌ؛ بَلْ عَلَيْهِ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ هَذَا السُّلُوكُ الْمُنْحَرِفُ لَوْ دَأَوْمَ عَلَيْهِ سَتَكُونُ عَاقِبَتُهُ وَبَالَاً عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ -عِبَادَ اللَّهِ-، وَأَيْقُنُوا أَنَّ مَنْ اسْتَحْيَا مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ اللَّهَ يَيْئَنُهُ وَبَيْنَ مَعْصِيَتِهِ حَوَاجِزَ وَسُدُودًا، فَابْتَعدُ مِنْهَا وَصَدَّ عَنْهَا صُدُودًا.

أَقُولُ قَوْلِي هَذَا وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ لِي وَلَكُمْ، فَاسْتَغْفِرُهُ يَغْفِرُ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ، وَادْعُوهُ يَسْتَجِبُ لَكُمْ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الْكَرِيمُ.

*** *** ***

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي حَتَّى عِبَادَهُ عَلَى الْعَفَافِ وَالنَّقَاءِ، وَنَهَاهُمْ عَنِ السُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا وَنَبِيَّنَا مُحَمَّداً عَبْدَ اللَّهِ وَرَسُولَهُ، حَتَّى أَصْحَابَهُ عَلَى الْعِفَافِ وَالْحَيَاءِ، وَبَيْنَ لَهُمْ مَا فِيهِمَا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّعْمَاءِ، وَعَلَى الْأَلِهِ وَأَصْحَابِهِ، وَعَلَى كُلِّ مَنِ اهْتَدَى بِهِدِيهِ، وَسَارَ عَلَى نَهْجِهِ إِلَى يَوْمِ الْجَزَاءِ. أَمَّا بَعْدُ، فِيَا عِبَادَ اللَّهِ:

إِنَّ الْإِسْلَامَ نَهَجَ مَنْهَجًا وَسَطَا فِي تَشْرِيعِهِ لِسَدِّ الذَّرَائِعِ الَّتِي تُخْلِي بِالْمُجَتمَعِ وَتُهَدِّدُ أَمْنَهُ، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى الْإِسْتِقَامَةِ وَالْعِفَافِ وَالاحْتِشَامِ وَغَضْنِ البَصَرِ 《قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَعْضُوُ مِنْ أَبْصَرِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ، وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضُضُنَّ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبَدِّيْنَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلَيَضِرُّنَّ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جِيُوبِهِنَّ》^(١)، إِنَّ الْحَيَاةَ الطَّيِّبَةَ لَا تُؤْتَى ثِمَارَهَا إِلَّا إِذَا زَيَّنَهَا الْحَيَاةُ، وَجَمَّلَهَا الطُّهْرُ

(١) سورة النور / ٣٠-٣١ .

والعفافُ والنقاءُ، لأنَّ ذلكَ يعتمدُ عليهِ سُلوكُ الإنسانِ ونظامُهُ، وتشتَّعَبُ منهُ مكارمهُ وصفاتهُ، وتتطاولُ منهُ رؤيتهاُ للحياة من حولهِ، فيُنصرُ الدنيا بعينيِ الحياة والعفة، فلذلكَ جاءَ في السنَّة النبوية منزلاً من اتصفَ بذلكَ، ففي حديثِ السبعَةِ الذين يُظلمُونَ اللهُ في ظلهِ يوم لا ظل إلا ظله: ((ورجل دعته امرأة ذات حسب وجمال، فقال: إني أخافَ اللهَ يوم لا ظل إلا ظله))، وفي القرآنِ الكريم قالَ اللهُ جلَّ وعلا: «وَمَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ، وَنَهَى النَّفَسَ عَنِ الْمَوْى، فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَوْى»^(١)، إنَ العفافُ والحياة سببُ إجابةِ الدُّعاءِ وتجاوزُ الأخطارِ، كما وردَ في خبرِ الثلاثةِ الذين سدَّتْ عَلَيْهِم الصَّرْخَةُ بَابَ الغَارِ، فلمَ يَجِدْ أحدهُمْ من عملٍ أرجَى لهُ عندَ اللهِ، يستشفعُ بهِ، منْ إعفافِ نفسهِ وحَوْقِهِ منْ ربِّهِ واستحْيائِهِ منهُ، فلما قالتْ لهُ تلكَ المرأةُ: اتقِ اللهَ، عظُمَ عَلَيْهِ ما هوَ فيهِ، وما كانَ منهُ إلا أنَ أخلَى سبيلاً لها؛ إعظامًا لجلالِ اللهِ، واستشعارًا لرقابتهِ، فهذهِ النصوصُ تَحْمِلُ عَلَى سُمُّ النفسِ، ونبُلِ الطَّبَاعِ، والتَّعالِي عن الشَّهُواتِ المُحرَّمةِ، قالَ تَعالَى: «وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ»^(٢).

فانقووا اللهَ - أيها المسلمون -، والزموا العفةَ والحياةَ حيثُ كُنتمْ، واقرُنوهَا في كلِّ أقوالِكمْ وأعمالِكمْ، وتدكُروا قصصَ المستَغْفِينَ منْ قبلِكمْ «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فِيهِمْ أَفْتَدَهُمْ أَفْتَدَهُمْ»^(٣).

هذا وصلوا وسلموا على إمام المسلمين، وقائد الغرِّ المحجَّلين، فقد أمرَكمُ اللهُ تعالى بالصلاحة والسلام على محكم كتابه حيث قالَ عزَّ قائلًا عليمًا: «إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلِّوْنَ عَلَى الَّذِي يَكِيدُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلَوْا عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا»^(٤).

اللَّهُمَّ صَلِّ وسِّلِّمْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كما صَلَّيْتَ وسَلَّمْتَ عَلَى

(١) سورة النازعات / ٤٠-٤١.

(٢) سورة الرحمن / ٤٦.

(٣) سورة الأنعام / ٩٠.

(٤) سورة الأحزاب / ٥٦.

سَيِّدُنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ سَيِّدِنَا إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمَيْنِ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ، وَأَرْضَ اللَّهِمَّ عَنْ خُلُفَائِ الرَّاشِدِينَ، وَعَنْ أَزْوَاجِهِ أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَعَنْ سَائِرِ الصَّحَابَةِ أَجْمَعِينَ، وَعَنِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَعَنَا مَعْهُمْ بِرَحْمَتِكَ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ.

اللَّهُمَّ اجْعَلْ جَمِيعَنَا هَذَا جَمِيعًا مَرْحُومًا، وَاجْعَلْ نَفْرُقَنَا مِنْ بَعْدِهِ نَفَرُقًا مَعْصُومًا، وَلَا تَدْعُ فِينَا وَلَا مَعَنَا شَقِيقًا وَلَا مَحْرُومًا.

اللَّهُمَّ أَعْزِزِ الْإِسْلَامَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَوَحْدَ اللَّهُمَّ صُفُوفُهُمْ، وَاجْمَعْ كَلْمَتَهُمْ عَلَى الْحَقِّ، وَاکْسِرْ شَوْكَةَ الظَّالِمِينَ، وَاکْتُبِ السَّلَامَ وَالْأَمْنَ لِعِبَادِكَ أَجْمَعِينَ.

اللَّهُمَّ يَا حَيُّ يَا قَيُومُ يَا ذَا الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ، لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ بِكَ نَسْتَجِيرُ، وَبِرَحْمَتِكَ نَسْتَغْيِثُ أَلَا تَكِلْنَا إِلَى أَنفُسِنَا طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ، وَأَصْلِحْ لَنَا شَأْنَنَا كُلَّهُ يَا مُصْلِحَ شَأْنِ الصَّالِحِينَ.

اللَّهُمَّ رَبَّنَا احْفَظْ أَوْطَانَنَا وَأَعْزِزْ سُلْطَانَنَا وَأَيْدِهِ بِالْحَقِّ وَأَيْدِيهِ بِالْحَقِّ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ، اللَّهُمَّ أَسْبِغْ عَلَيْهِ نِعْمَتَكَ، وَأَيْدِهِ بِنُورِ حِكْمَتِكَ، وَسَدِّدْهُ بِتَوْفِيقِكَ، وَاحْفَظْهُ بِعَيْنِ رِعَايَتِكَ.

اللَّهُمَّ أَنْزَلْ عَلَيْنَا مِنْ بَرَكَاتِ السَّمَاءِ وَأَخْرِجْ لَنَا مِنْ خَيْرَاتِ الْأَرْضِ، وَبَارِكْ لَنَا فِي ثِمَارِنَا وَزُرُوعِنَا وَكُلَّ أَرْزَاقِنَا يَا ذَا الْجَلَلِ وَالْإِكْرَامِ. رَبَّنَا آتَنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ، الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ، الْأَحْيَاءِ مِنْهُمْ وَالْأَمْوَاتِ، إِنَّكَ سَمِيعٌ قَرِيبٌ مُجِيبُ الدُّعَاءِ.

عِبَادَ اللَّهِ: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَةِ وَيَنْهَا عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعْلُمُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ».

